محاولات في درس جبران

يسوع الانجيل ويسوع جبران

بقلم امين خالد

٢

على ان في عبارته الثانية : « انتم لا تعرفون ان الارض زُفت الى الشمس وان الارض هي التي تبعثنا الى الجبل والى الصحراء » [1] رموزاً لا تقبل التأويل بالصوفية ابداً. فالارض مصدر للمادة التي بنى عليها متكرو الوحي نظرياتهم ، والشمس اليست رمزاً لمصدر النور والحرارة الطبيعية التي لا تدخل فيها لوحي او الهام سماوي ؟ وعندما اقترن هذا النور بالارض تولدت القوة التي تبعثنا الى الجبل والى الصحراء، اي ترفعنا الى قمم العلاء وتدفعنا الى مجال الحرية اللامتناهية، تلك الحرية التي طالما تاقت نحوها نفس جبران وتغنى بها ابطاله السائرون في اثر مريم المجدلية ، تلك الحرية المبهمة الغير المنظمة التي لا يحددها الا الاحتياج اليها ولا يبررها الا حب المرء اياها في مطلق الظروف وجميع الاحوال.

قالت يونا امرأة حافظ هيرودس :

« واما انني كنت في ذلك الوقت زانية في نظر الناس ، لانني احببت رجلاً لم يكن زوجاً لي ، وكان صديقاً.

وفي احد الايام جاء الصدوقيون الى بيتي وكان عشيقي معي ، فقبضوا عليّ وحبسوني ، اما عشيقي فهرب وتركني.

ثم قادوني الى ساحة المدينة حيث كان يسوع يعلّم الجموع.

وكانوا يرغبون في تقديمي اليه ليجربوه ويصطادوه بفخاخهم.

ولكن يسوع لم يحكم عليّ . فقد البس العار ان جاؤوا بي ليلبسوني ثوب العار ، واوسعوني لوماً وتوبيخاً.

اما انا فانه اطلقني بسلام.

وبعد ذلك صارت جميع انهار الحياة التي لا طعم لها لذيذة في فمي ، والورود التي لا عطر

---

١) يسوع ابن الانسان ، ص ٢١٥

لها صارت منبعاً للعطر الجميل في منخري. فهي امرأة لا تعرف الذكرى الفاسدة – اجل صرت حرةً ولم يعد رأسي منحنياً.» (١

اين هذا من شريعة الزواج التي تضمنتها الآية التاسعة من الفصل العاشر في انجيل مرقس اذ يقول: «ما جمعه الله لا يفرّقه انسان».

وقال على لسان «سالومة» الى صديقة لها» عن «رغبة لم تتحقق»:

«بل قد كان كالمحور الجبل، وكالبحيرات بين التلال، وكالثلج على لبنان. وكنت اتوق لتبريد عطش شفتيّ في ثنايا ثوبه.

بيد انه كان بعيداً عني، وانا كنت خجولة. وكانت امي تنهاني عن الذهاب اليه كلما دعاني حنيني الى السير وراءه...

... ولكن قلبي لم يحفظ كلامها، فقد احببته سراً وكان حبه يخنق نومي بالنحيب.

قد مضى اليوم. وقد ذهب بذهابه شيء عظيم كان فيّ. ومن يدري فقد يكون شبابي قد ذهب معي لانه لم يطق ان يقيم هنا بعد ان رأى الاه الشباب قتيلاً.» (٢

في فؤاد سالومة هذه عاطفة حارة نحو التسامي والنقاوة وهي تشعر بالحاجة الى تقبيل اذيال الذي اجتمعت فيه هذه المزايا، وانها تنهاها عن التعلق به. ولكن تمني الحرية في الحب يحملها على التمرد. ولذلك نراها متحسرةً يائسة لان رغبتها لم تتحقق. فاين الايمان الذي يجب ان يحيي النفس، ولاسيما امام الموت؟ واين الرصانة الروحية التي تقتبل الحزن العميق بقلب كبير؟ أمثل هذه الزفرات الحرّى يحاكي التضحية الصامتة التي تؤديها النساء المتألمات امام الصليب! كلا انها لعاطفة نفعية انانية اكثر مما هي تأثر اخلاص نزيه.

وهذا البون الشاسع في النوع والكمية بين ميزات الشخصيات التي يستنطقها جبران وبين اشخاص العهد الجديد هو الذي يولد فساد العقيدة، ويعطل الفنّ، ويجردهن من سمو نية الكاتب الذي ضرب بالحقيقة عرض الحائط عندما كان يعالج مواضيع كتابه. تأمل كيف يشوّه صورة السيد المسيح القائل «انه لاسهل ان يدخل الجمل في ثقب الابرة من ان يدخل غني ملكوت الله» (٣ فيجزه حريصاً على التدقيق في الداخل والخارج الى صندوقه من العملة. وكيف يصور

١) يسوع ابن الانسان، ص ٢٧-٢٨

٢) يسوع ابن الانسان، ص ٦٥-٦٦

٣) مرقس ١٠: ٢٥

المشترع الزاهد كانه من العملاء الذين يأسر مشاعرهم تمايل امرأة في المطعم فيستسلمون لعاطفة تأخذ مدى حبها دون ما تحفظ ولا مداراة . كل ذلك واضح في حديث « آحاز الجسيم صاحب الفندق » عن « العشاء قبل الفصح » قال :

« وكانت زوجتي قد اعدت سمكاً من البحيرة ، ودراريج من حوران حشتها بالارز وحبوب الرمان واحضرت انا لهم جرّة من خمرة مروتي .

ثم تركتهم لانني شعرت باهم راغبون في ان يكونوا وحدهم .

وقد اقاموا في العليّة حتى خيّم الظلام ، ثم انحدروا جميعهم معاً من العليّة ، ولكن يسوع وقف هنيهة عند قدمي السلم ، فقلن اليّ والى زوجتي ، ثم وضع يده على راس ابنتي وقال : ليلتكم سعيدة جميعاً ، اننا سنأتي ثانيةً الى عليتكم . . .

حينئذٍ التفت الى يهوذا الاسخريوطي الذي كان يحمل كيس الجماعة ، وقال له : « اعطني شاقلين »

فاعطاه يهوذا شاقلين وقال له : « هذه آخر قطع من الفضة في كيسي »

فنظر اليه يسوع وقال له : « قريباً جداً سيمتلئ كيسك فضة »

ثم وضع الشاقلين في يدي وقال : « اشتر بهذا المال منطقةً حريرية لابنتك ومرها ان تلبسها في عيد الفصح تذكاراً لي . »

قال هذا ونظر الى وجه ابنتي ثانية واحنى وقبّل جبينها ثم قال ثانية : « ليلتكم سعيدة جميعاً . »

وسار في طريقه .

يقولون لي ان ما قاله لنا قد دوّنه احد اصدقائه على رقٍ عنده ولكنني اعدته على مسامعكم كما سمعته من شفتيه .

انني لا انسى ما حييت رنّة صوته وهو يقول هذه الكلمات : « ليلتكم سعيدة جميعاً »

فاذا اردتم ان تعرفوا اكثر من هذا عن النبي الجديد فاسألوا ابنتي ، فهي امرأة الآن ولكنها لا تبدل تذكارات صباها بمال الارض كلها . وهي اكثر استعداداً للكلام مني . » (١

اننا نكتفي بايراد هذه النصوص بلا تعليق ولا شرح لانها جليّة بذاتها . ولولا خوف الاكثار والملل لذكرنا غيرها حيث ترثيه « امرأة من جبيل » قائلةً :

« ابكين معي يا بنات عشتروت ، ويا كل نبي نوز . . .

بللن بدموعكن اغطية فراشي الحريرية ، حيث استراح حبيبي مرةً ، ثم ابتعد عني في يقظتي .

استحلفكن يا بنات عشتروت ، ويا كل نبي نوز .

اسندن صدوركن وابكين وعزّيني .

---

١) يسوع ابن الانسان ، ص ١٦٤-١٦٥

لان يسوع الناصري قد مات » (١

او حيث تترنم حبيبة « يوناثان » السائرة معه في القارب :

« تأمل يا حبيبي هذه الزهرة الذهبية العائمة بين العلو والعمق كما نسبح (انت وانا) بين المحبة التي كانت منذ الازل وستظل الى منتهى الدهور.

حرك مجذافك يا حبيبي ، لاضرب على اوتار قيثارتي . لتتبع الضفاف ولا تحمل زنابق المياه.

في الناصرة شاعر قلبه كقلب عرائس النيل . وقد زار هذا الشاعر نفس المرأة ، وهو يعرف عطشها المتفجر من المياه ، ويعرف مجاعتها للشمس في حين ان كل شفاهها شبعانة.

...

حرك مجذافك يا حبيبي ، لاضرب على اوتار قيثارتي.

ففي الناصرة شاعر يعرفنا ويحبنا معاً.

حرك مجذافك يا حبيبي ، لاضرب على اوتار قيثارتي.» (٢

والآن نعتقد ان في هذا القدر كفاية لاستخراج النتيجة الحاسمة التي تؤيد رأينا في جبران وقصده من الصاق المحبة النسوية بيسوع ابن الانسان وتصوير اختيارها في قلبه بقدر ما يستطيع من الانجذاب والتدلّه الذي يتفق مع ماضي جبران الادبي.

وهو ، وان استحال عليه ان ينسب الى بطل الكتاب صراحةً ما اعترف به عن نفسه في « الاجنحة المتكسرة » او ما علّل به نظريته الاباحية في تعاليم النبي عن اللذة الجسدية ، فانه لا يتأخر عن استبدال شريعة الحياء والعفة المقدّسة بشريعة مريضة هي محض الاباحيّة المطمئنة في حقلها الحر.

جاء في انجيل يوحنا ، الفصل الثامن ، في رواية المرأة التي اخذت بالزنى وجاء بها الفريسيون ليجرّبوا السيد المسيح :

« ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم : من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويرمها بحجر. ثم اكبّ ايضاً يخط على الارض. اما اولئك فلما سمعوا طفقوا يخرجون واحداً فواحداً، وكان الشيوخ اول الخارجين. وبقي يسوع وحده والمرأة قائمةٌ في الوسط. فانتصب يسوع وقال لها : يا امرأة ، اين الذين يشكونك ؟ اما حكم عليك احد ؟ قالت : لا، يارب ! فقال

١) يسوع ابن الانسان ، ص ٢١٢-٢١٣

٢) يسوع ابن الانسان ، ص١٢٦-١٢٧

يسوع: ولا انا احكم عليك. اذهبي ولا تعودي تخطئين » (١

فلنبحث الآن في كتاب جبران عن الشريعة التي قضى يسوع بموجبها في الموضوع نفسه لنرى اية صفة اتخذ مبدأ الكاتب الحريري قال على لسان « اندراوس » ، « في المدنيين » :

« . . . فاحاطوا بيسوع وقالوا له : « قد دنّست نذر زواجها وأمسكت بالفعل الشنيع . »

فنظر اليها ، ووضع يده على جبينها ، وتأمّل ملياً في عينيها .

ثم التفت بالرجال الذين احضروها اليه ، وامعن نظره في وجوههم ، وانحنى وشرع يكتب باصبعه على الارض .

فكتب اسم كل رجل ، وكتب الى جانب كل اسم الخطيئة التي ارتكبها صاحب الاسم .

وفيما كان مكبّاً على الكتابة هربوا من حضرته يجرون اذيال عارهم .

وقبل ان فرغ من كتابته لم يبق امامه احد الا نحن والمرأة .

فنظر الى عينيها ثانية وقال لها : « انك قد احببتِ كثيراً . اما الذين احضروك الى هنا فانهم احبوا قليلاً . ولكنهم حملوك اليّ كاحبولة لاحتيالي .

فانصرفي الآن بسلام .

لم يبقَ منهم احد ليدينك . فاذا رغبت في ان تكوني حكيمة كما انت محبة . فاطيعيني ، فان ابن الانسان لا يدينك » (٢

عندما سمع يسوع الانجيل اتهام الزانية « انتصب » ولفظ الحكم الصارم على المجرمة فوراً . ولكنه اشترط ان يكون العامل على قمع الجريمة شريفاً طاهر الذيل . واما يسوع جبران فقد فهم التثبت من انّ امرأة « دنّست نذر زواجها وأمسكت بالفعل الشنيع » ولم يأتِ بعمل قضائي يحقها .

يسوع الانجيل « اكبَّ يخطّ على الارض » . ولكن يسوع جبران « نظر اليها ووضع يده على جبينها وتأمل ملياً في عينيها »

يسوع الانجيل نادى المتهمة بلهجة تشعر بالحزم في الدينونة « يا امرأة . . . » والتثبت في متابعة التعقيبات « اما حكم عليك احد ؟ » — واما يسوع جبران فتحبب يخطب مودّة المجرمة بتبرير موقفها واطرائها : « انك قد احببتِ كثيراً اما الذين احضروك الى هنا فانهم احبوا قليلاً . »

١) يوحنا ٨ : ٧-١١

٢) يسوع ابن الانسان ، ص ١٥٢

وبالنتيجة فتهمة الانجيل يظهر تضرعها وتتراءى توبتها بقولها « لا يا رب »، فينفر لها المسيح على ان لا ترجع الى مثل ذنبها . واما يسوع جبران فلا يحصل من قبل الزوجة المدنسة على امارة تحكي الخضوع والاذعان للتوبة ، او الشعور بانها اتت امراً فرياً . وعليه فهو يطلقها تسرح وتمرح كما ترغب وتشتهي ، دون ما شرط ولا قيد . ويزيدها انغماساً بتحريضه اياها وتطمينها بان لها ان تستسلم الى سلطان الحب وتنفذ ما يامرها ، به وهو يبرّئ ساحتها لانها تعمل بمشيئة القلب .

يسوع الانجيل حكم على الزانية ثم عفا عنها والقى حبل الرحمة على غاربها، معتمداً على حسن نيتها بعدم الرجوع الى الاجترام . واما يسوع جبران فلم يرَ لزوماً لوضع الحبل في رقبتها لانها مبدئياً حرّة وكل ما ترغب به من المحبة فهو «مباح» . وهذا التعاكس بين مبدأ « اذهبي ولا تعودي تخطئين » ومبدأ « انصرفي الآن بسلام . . . واذا رغبتِ في ان تكوني حكيمة كما انت محبّة ، فاطلبيني فان ابن الانسان لا يديننك» هو القول الفصل في ان جبران قصد مسخ المذهب المسيحي وطعنه بحراب التشويه في احشائه ، وتزييف مواضيعه بذاتها لابرازها بقالب له من الموضوع اسلوبه وبعض تعابيره وبعض النقاط المأثورة عنه . ولكنه مركب باسلوب يعود بالاتجاه العام الى ما هو نقيض المبدأ الاساسي .

بقي علينا ان نقول كلمة في تعليل جبران للعجائب الانجيلية ورأيه الفلسفي شبه اللاهوتي . وهو ما ندرسه قريباً ، ان شاء الله .